

## قراءة في أزمة الإرادة والوجدان المسلم (\*)

الأستاذ صالح مصطفى أحمد معلي (\*)

## المقدمة :

ما هي الأزمة التي تعاني منها الأمة الإسلامية وما هي جذورها؟ ما هي التشوهات والانحرافات الفكرية والثقافية التي أعاقت مشروعات الإصلاح من بلوغ غاياتها المرجوة؟ وما هو البعد الغائب في هذه المشروعات؟ وما هي قاعدة الانطلاق للحل؟ وهل للأسرة دور في إنجاح مشروعات الإصلاح وكيف يكون ذلك؟ وما هي خطة العمل لإحداث النهضة الإسلامية اللازمة لتحقيق الشهود الحضاري؟ أسئلة أجاب عليها البروفيسور عبد الحميد أحمد أبو سليمان، من خلال مقدمة وستة فصول وخاتمة ضمها كتابه أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة " في إصلاح الثقافة والتربية : رؤية إسلامية معاصرة " ، الصادر عن دار الفكر بدمشق في طبعته الأولى 2004م والواقع في 336 صفحة من القطع المتوسط . وقد جعل غايته وضع قضية الطفولة ودور الفكر التربوي باعتباره منطلقاً أساسياً في تحقيق التغيير الاجتماعي على مائدة الدراسة والفكر والنظر ، وتنقية الثقافة الإسلامية ومدخلاتها التربوية واستكمال الأدوات المنهجية للفكر الإسلامي في دراسة السنن والطبائع والواقع في الزمان والمكان وفق منهج ناقد يركز على أوجه النقص والقصور في الجهود السالفة قصداً لتلافيها ؛ من أجل إعادة دور الطفولة وإدراك دلالاتها العلمية والنفسية في إحداث التغيير الاجتماعي؛ إذ أنها البعد الغائب الأساس في إحداث التغيير النفسي الجمعي الضروري لاستعادة الرؤية، وتحريك الطاقة الوجدانية، ومواجهة التحديات . وقد لفت النظر -من خلاله - لدور مؤسسة الأسرة المحوري في الإصلاح التربوي والتغيير الاجتماعي، كل ذلك من خلال نظرة ناقدة حاول من خلالها التعرف على ما أصاب روح الحضارة الإسلامية من قفور وما اعتري أداءها من قصور أسلمها إلى العجز والضعف الذي تعيشه اليوم . يضاف إلى ذلك رغبة الكاتب في فتح باب حوار جاد بناءً، يتسم بروح الإخلاص والشجاعة، لتمكين طاقات الإرادة والقدرة والمبادرة والروح العلمية والإبداع في أصل طفولة الإنسان المسلم وتكوينه النفسي والوجداني ؛ لأن التمكين في أصل الطبع هو أساس الإرادة والفعل وتفعيل الأداء.

## القضية: الإرادة

ما هي أسباب تدهور الأمة وقصور أدائها وما هي الأسباب التي حالت دون نجاح مشروعات الإصلاح الإسلامي؟ أين الخلل وأين أخطأ النظر وجه الصواب؟ أسئلة أجاب عنها الكاتب من خلال الفصل الأول حيث يعتقد أن اعتزال قادة الفكر ورجال مدرسة الرسالة في الأمة للحياة العامة سياسة واقتصاداً واجتماعاً وثقافة ولّد تشوهاً في منهج الفكر الإسلامي غيّب عنه البعد المعرفي الشمولي التحليلي المتعلق بمعرفة السنن الإلهية "قوانين الطبيعة" في الطبائع النفسية والكونية ، وأنتج غياب الخطاب النفسي التربوي السليم اللازم لبناء نفسية الطفل المسلم مما أوجد خللاً في تكوين البعد النفسي والوجداني السليم لدى الطفل المسلم ، وأفقره الفعالية والإرادة التي تعد شرطاً ضرورياً للتصدي بفعالية للتحديات التي تواجه الأمة والمجتمع . هذان الخللان "تشوه المنهج الفكري و التربوي" جعلهما الكاتب مسببات لأهم أسباب أزمة الأمة وقصور أدائها وعدم القدرة على تحريك كوامن الإرادة والطاقة فيها وهو إسقاط الدور المحوري للطفولة في بناء الإرادة

(\*) تأليف أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان .

(\*) ماجستير اقتصاد جامعة الجزيرة اقتصاديات تنمية .

والوجدان اللذان لنجاح مشروع الإصلاح ومن ثم عدم قدرة الإنسان المسلم فرداً وأمة على الاستجابة لمتطلبات مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي، وتصحيح الانحرافات ، وضم الصفوف وإتقان الأداء .

**الشمولية وبناء الأولويات :**

يرى الكاتب أن المنهج الشمولي السليم ، يهتم بتحليل العوامل الأساسية ويدرك طبيعة التفاعل بينها، ويهتم بمعرفة المضاعفات الناشئة عنها، ويرتّب هذه العوامل وفقاً لسلم الأولويات في التعامل مع المشكلات المطروحة وحسب المضاعفات المترتبة عليها في ضوء الظروف والإمكانات المتاحة. كما يذهب إلى أن التحدي يحتم تعدّد وتجذّر الوسائل والأساليب بما يحقق الإحاطة بالمشكلات وملاحقة المتغيرات .وبالنظر المنهجي إلى ظاهرة انحطاط أوضاع الأمة الإسلامية ورغم أن تعدد الحلول والمعالجات- فإن فجوة الأداء المتميز تزداد اتساعاً بين الأمة المسلمة والأمم المتقدمة. كما يرى أن جميع حركات الإصلاح الإسلامي وما تبعها من حركات استقلال وحركات قومية علمانية في كثير من البلاد الإسلامية لم تنجح في إدراك مشكلة الأمة ، ومن ثم وصف علاجها اللازم بما يجدد روح البذل والعطاء والانطلاق الحضاري لأن هناك عاملاً أو عوامل ما زالت مجهولة يتوقف عليها تفعيل ما بذل من جهود للإصلاح ، ويجب إعطاء الجهود الفكرية حرية كافية للبحث عنها .

#### **أهمية إدراك خصائص منظومة الذات العقديّة والفكرية :**

يرى المؤلف أن حركات النهضة ومشاريع الإصلاح المتأخرة في الأمة قامت على التقليد والمحاكاة إما للتأريخ والتراث الإسلامي أو للأجنبي الغالب المتمكن ، ومن ثم لم يفلح فكرها في حل المشكلة وسيظل الحال كذلك ما استمر التقليد. ولإحداث النهضة لا بد من النظر الشمولي التحليلي العلمي القائم على المنطلقات الأصلية للأمة وخصوصيات مكونات عقليتها ووجدانها، ضمن واقعها الزماني والمكاني

**أخطاء التلاقح الفكري بين الأمس واليوم :** يذهب المؤلف إلى أن عدم قدرة الأمة في باكورة نشأتها على صهر الوافدين عليها ثقافياً وتربوياً إضافة إلى خطأ الفكر أو عدم قدرته على تقدير الأولويات وتوفير مطلوبات التعامل مع مورثات الوافدين أمور أدت إلى استنفاد طاقة الأمة وتشوّه رؤيتها وإضعاف القوة الدافعة طاقةً وفكراً وإطاراً منهجياً يمنحها تميزاً وتجديداً وتطويراً. ورغم أن الحياة في وجدان المسلم وسيلة لغاية إنسانية خيرة على أساس من شريعة العدل- نجد أن الأمة الإسلامية قد فقدت هذه الرؤية بسبب التفاهة بفكر وفلسفات وموروثات الأمم على غير دراية ولا منهج ، فقلّدت المادي الغربي في رؤيته، مما أضّر كثيراً بروح الحضارة الإسلامية في الجوانب الروحية والعقدية التوحيدية الاستخلافية ويذهب الكاتب إلى أن نتائج هذه الأزمة تتمثل في إهمال دور المرأة والطفل في الإصلاح والتغيير وغياب البعد العلمي التربوي اللازم لتنشئة الأجيال الإسلامية لمواجهة التحديات.

#### **جذور الأزمة :**

رغم ما تذخر به الأمة من موارد بشرية ومادية وما يتوافر لها من قيم ومبادئ وغايات ومقاصد سامية لا مثيل لها في أي دين وثقافة وحضارة غير الإسلام، تعيش في أزمة عجزت معالجات وجهود ورؤى الإصلاح وحركاته عن حلها ، لأن عوامل التعويق والانحراف كانت متعددة عميقة الجذور ووقع أحداثها كان سريعاً بما جعل المعالجات أشبه برودود الأفعال التي لا تتحكم بالظروف أو تمنع النظر في القضايا لفهم طبيعتها ومتطلبات مواجهتها لتجسيد مبادئ الإسلام -الصالحة

لكل زمان ومكان للإنسانية جمعاء والتي هي رسالة حق وهداية كلية ربانية إلى البشرية توضح لها الكليات، وتمدها بالقيم والمبادئ التي تهدي سعيها، وتنير طريقها، وتسدد فعالها وتصبغ وجودها، بقدر اجتهاد البشر وطاقتهم في الأخذ من هداية هذه الرسالة العالمية المحفوظة.

### طاقة الدفع الإيماني الحضاري والتراكم المادي العمراني:

مقارناً مسيرة الدفع الإسلامي اليوم بعهد الرسالة وصدر الخلافة وأثرها في واقع الحياة المعيش، يؤكد الكاتب أن التدهور والانحطاط يجعل الأمر يبدو وكأنّ قيم، ورؤية، وروح الرسالة استخلفاً بالإخاء والعدل والبذل وإتقان الأداء قد تعطلت في واقع الأمة، ويرجع الكاتب انحراف المسيرة عن خط الأداء الأمثل إلى ترك الناس، لجهدهم في تمثيل الرسالة واجتهادهم في الاقتباس منها. وذهب الكاتب إلى وجود تناسب عكسي في تاريخ الأمة بين قوة دفع الرسالة ونوعية الأداء من ناحية، وتراكم معالم عمران الأمة وتراثها ومظاهر الحضارة فيها من ناحية أخرى.

### كيف بدأ ضعف الطاقة الإيمانية الأخلاقية؟ :

يدعي أبو سليمان، أنّ الجهود التربوية قد قصّرت عن إعادة تربية أبناء القبائل البدوية التي كونت جيش الفتح حين ضعف جيل الرسالة، والصحابة وانحلت قبضتهم في تسيير الأمور، مما نتج عنه سرعة ظهور الانحراف عن رؤية الإسلام الكونية، وقيمه ومبادئه السامية، وهدم نظام الخلافة الراشدة وتحولها إلى ملك عضوض يقوم على العصبية والقبلية بسبب تغير القاعدة السياسية والعسكرية.

**السياسية والأخلاق والدين . انقسام القيادة ونشأة المدرسية النظرية.** يذهب الكاتب إلى أن جيل الصحابة كان جيلاً فاعلاً بسبب التربية التي نالها على يده (ص) والتوجيه والترشيد من قبل الوحي الإلهي، إلا أنّ دورهم قد تضاعف في الحياة العملية حينما اعتزلوا المجتمع وأصبحوا مدرسة نظرية على عهد الفتنة التي أصابت الأمة. ولما ضعف دورهم فيها استبدت الصفوة السياسية بالأمر دون قاعدة فكرية تنطلق منها سوى القبلية والعنصرية والتحزبات و من ثم تأثرت الأمة بغازيات الفكر الفلسفي، وسيطر إرهاب الاستبداد السياسي وخطاب الترهيب الديني مما خلق في الأمة نفسية الانطواء والتبعية. ولم ينتبه قادة الفكر إلى أن التربية وإعادة التربية هي السبيل الناجع للإصلاح والتغيير.

### تشخيص الداء:

ما هي التغيرات والانحرافات في فكر ونفسية ووجدان الأمة وأوجه القصور التي أسهمت في تعويق جهود الإصلاح عن تحقيق أهدافها؟ من خلال الفصل الثاني حاول أبو سليمان تشخيص الداء بالإجابة عن هذا السؤال، حيث يرى أن هنالك ستة انحرافات وتشوهات أصابت فكر وثقافة الأمة فمنعت مشروعات الحضاري من تحقيق أهدافه والتي يشار إليها إجمالاً في تشوه إطار فكر الأمة وثقافتها؛ وهي الرؤية الكونية الإسلامية التي تجعل حياة المؤمن جهاداً واجتهاداً في كل شيء، و التشوه المعرفي المنهجي الذي حوّل الفكر الإسلامي إلى فكر نظري غارق في تأملات نظرية مدرسية لا تمت إلى واقع الحياة الاجتماعية للأمة بصلة، و تشوه المفاهيم الأساسية الإسلامية، ومن ذلك تشوه مفهوم العبودية و التوحيد ودلالاته الحياتية بحيث أخرجه عن كونه مبدأً دينياً ومفهوماً إسلامياً له دلالاته في حياة البشر، و تشوه الخطاب الإسلامي وتحولّه إلى فكر نصّي مغلق، ينعزم فيه الاجتهاد ويقوم على التقليد، إضافة إلى انتشار عقلية الشعوذة والخرافة التي تعني في المدلول الحضاري تشويه العقلية السننية وتدميرها لدى أبناء الأمة فضلاً عن انتشار العصبية الشعوبية العرقية كانحراف عقدي فكري وتلوّث ثقافي أدى إلى تردي الأمة في منحدرات الصراع والأحقاد والتخلف.

ويخلص الكاتب إلى أن هذه التشوهات قد قادت إلى انحطاط مكانة العقل وانتشار فكر المحاكاة والتقليد والإرهاب الفكري الديني والاجتماعي السياسي والتربوي في الأمة ومن ثم أصبحت أمة سلبية متخلفة تمكّن منها العدو.

### الطفل قاعدة الانطلاق :

لماذا لم تفلح جهود الإصلاح الإسلامي واجتهادات المفكرين في تحقيق مقاصد وغايات نهضة الأمة؟ وما هو البعد الغائب لدى حركات الإصلاح الإسلامي؟ حاول الكاتب الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال الفصل الثالث حيث يرى أنّ جهود حركات الإصلاح الإسلامي التي مرت على الأمة، تجاهلت قضية أساسية ومحورية في الإصلاح والتغيير المطلوب ؛ - هي قضية الطفل وتربيته - لما له من قدرة على تلبس الأحوال التي توفر شروط امتلاك القدرة على مواجهة التحديات. ويذهب الكاتب إلى أنه من الضروري إصلاح التعليم وتنمية الوعي التربوي المهم بالطفل وقضيته باعتباره قاعدة الانطلاق لنجاح مشروعات الإصلاح الإسلامي .

### موقع الفكر من مشكلات الأمة الكبرى :

ذهب الكاتب إلى أن حال الأمة المسلمة " أصبح من التمزق والتناحر بحيث يجري على تناسب عكسي لما يجب أن تكون عليه علاقاتها وصلاتها وروابطها، التي تنمي وشائج التضامن وتوثق دواعي المحبة ، فيما بينها " وبالتالي تخلفت وضعف أدائها وأصبحت من الفقر والتخلف على نقيض ما كانت عليه بالأمس. وقد تعددت الرؤى لفهم هذه الظاهرة كما تعددت المشاجب التي نسبت إليها إلا أن فشلا ذريعا صاحب الحلول التي بنيت على هذه الرؤى والمشاجب التي تتمثل في الاستعمار و تعدد الأعراق وتنوع الثقافات والشعوب وهذه جميعها لا تمثل الأسباب الحقيقية للمشكلة ، حيث يرى الكاتب أن السبب الأساسي مرض اجتماعي يرجع بدوره إلى خلل في الفكر والثقافة وبالتالي مناهج التربية في المجتمع المسلم . ومن ثم لا بد من تنقية كليات المدخلات الثقافية والمعرفية وتقديمها بأسلوب تربوي سليم يراعي الأساليب العلمية الصحيحة في تكوين العقليات والوجدان المتوازن للناشئة بما يحقق التوازن في الجانبين الفردي والجمعي في تكوين شخصية الفرد باعتباره عضواً في الأمة والمجتمع .

### الجانب الجمعي في الفكر الإسلامي :

ذهب الكاتب إلى أن الروح الجمعي على عهد الرسالة كان على أفضل حالاته وأعلى مستوياته ، وأن أحساس أفراد المجتمع بالانتماء والمسؤولية والتضامن كان على أشد ما يكون من الاحساس والتعامل الوجداني ، كل ذلك بسبب أصل النشأة العربية القبلية الحرة التي عمّقها وفعلها ورّحّب مداها روح الإيمان التوحيدي الاستخلافي الذي حوّل التكافل والتضامن القبلي إلى تكافل وإخاء إسلامي . أما حينما تدهور البعد الجمعي، أصبح الحكم والسياسة والشؤون العامة والأموال - إقطاعية الصفوة السياسية القبلية العرقية العشوائية ، أما خاصة شؤون الفرد وتعاملاته فمناطق نفوذ الصفوة الفكرية الدينية . وأصبح العامة - في صراع الصفوات - فريسة الظلم والقهر والجهل والفقر وغدا المجتمع المسلم مرتعاً خصباً للشعوذة والخرافة وخدر الاستسلام لغيبية الوعي وللدروشة ذات الصبغة الصوفية الحلولية ، ومن ثم صعب البحث والتعرف على مفاتيح الإصلاح والتغيير والتطوير فيها ، ولم ينتبه مشروع الإصلاح الإسلامي إلى بناء البعد الجمعي في مرحلة الطفولة .

### التغيير الاجتماعي والخطاب التربوي :

كيف المخرج من حالة العجز التي نعيش ؟ وكيف يمكن تجديد الطاقة وإصلاح المسيرة وإحداث التغيير ؟ وما هو الأسلوب الإصلاحي الذي لم يُستخدم بفعالية في مشروع الإصلاح الإسلامي حتى الآن ؟ خلص الكاتب إلى أن المشكلة تكمن في غيبة إنسان الكرامة والشجاعة والبذل والنصرة القادر علمياً ومعرفياً ومن ثم فإن المطلوب هو إحداث التغيير في طبيعة البناء النفسي والوجداني لهذا الإنسان وتشكيل العقلية العلمية الإبداعية الإيجابية البناءة المسلمة التي تحمل مبادئ وقيم التوحيد والاستخلاف من خلال التغيير الجذري الذي يشكّل طبيعة البناء النفسي والوجداني والعقلي للإنسان والذي يتم بالوسائل التربوية السليمة خلال مرحلة الطفولة .

#### كيف نفهم الخطاب :

ذهب الكاتب إلى أن الخطاب الإسلامي - على عهد الرسالة - كان يتعدد بتعدد الأحوال المرجوة منه ولذلك كان خطاباً فعّالاً مؤثراً ، في حين أن ضعف خبرات أصحاب هذا الخطاب فيما بعد، أصابته بالضعف وحولته إلى خطابٍ نظري لا أثر له في الواقع ، أو ربما يؤثر سلباً على غير ما يقصد منه و يخلط بين خطاب البالغ العقلي المعرفي وخطاب الطفل النفسي الوجداني التربوي ، وقد كان لهذا الخلط في الخطاب وتوظيف القدسية لخدمته أثار سالبه بما مكن للصفتين السياسية والفكرية وكون لدى العامة نفسية العبيد .

#### الخطاب التربوي والخطاب القانوني : نظام العقوبات نموذجاً :

ذهب الكاتب إلى أن خطاب الإسلام متوازن يهدف لأن يمارس الإنسان حياته في إيجابية وأمنٍ وطمأنينةٍ، ومثاله خطاب العقوبات الذي لم يشرّع في يد السلطة لتسلطه على رقاب الناس ، وليس عبثاً ما أولاه الإسلام في هذا الخطاب من اهتمام لضمان العدل وطمأنينة النفوس ، ومن ذلك أنه قد يضطر القائم على أمر الطفل أخذ طفل العاشرة بشيءٍ من العقاب إذا ما أصر الطفل على عدم الصلاة ، ويؤخذ من ذلك أنه لا يجوز عقابه دون أن يبلغ سن التمييز . أما الخطاب النبوي التربوي للطفل فطبيعته تدعو إلى إظهار العناية والرعاية والحب والمودة والرفق بالصغير لكن المسلمين قد ضيّعوا هذا الخطاب وأحلوا محله خطاب الاستهانة والقسر والترهيب ، فلم يحفلوا بدراسة الطفولة وتنميتها واستنبات قدراتها وطاقاتها النفسية والجسدية ولم يوظفوها لتحقيق التغيير واستعادة الطاقة فذلت شعوبهم ، وخمدت طاقتهم واستقدموا الآخرين للذود عن أنفسهم وحماية بيضة دولتهم .

#### الحل الأساسي : بناء الطفولة :

ما هو البعد الغائب المهم في الفكر الإسلامي الذي حال دون تفعيل مشروع إصلاح الأمة وتحريك كوامن التغيير فيها ؟ سؤال أجاب عنه الكاتب من خلال الفصل الرابع الذي أكد فيه أن غياب دور الطفولة في بناء المجتمع كان وما يزال سبباً وعاملاً رئيساً في تدهور المجتمع المسلم ، وهو أيضاً سبب إخفاق مشاريع الإصلاح الحضاري الإسلامي حتى الآن . هذا ويؤكد الكاتب أن الطريق إلى الحل يبدأ من البحث والدرس الهادف لمعرفة جوهر التحديات وأوجه القصور في أداء الأمة ، حتى يمكن التعرف على معالم ووجوه التغيير والإصلاح المطلوب . ويؤكد الكاتب أن القدرة العلمية التكنولوجية تحدٍ أكبر يواجهه العالم الإسلامي والتغلب عليه يتم من خلال امتلاك المنهجيات العلمية السننية التي تقوم على العقول البشرية النابهاة وفق هدفٍ خيرٍ يستند على هداية ثوابت الإيمان بالله الحق وعلى مبدأ غائية التوحيد الأخلاقية وقيم العدل والتكافل والسلام

**المشكلة الثقافية ،: فض المعارك الوهمية وتصحيح المفاهيم :**

ذهب الكاتب إلى أنّ الإسلام دين العقل والاقتناع ومن ثم لا بد من إزالة الإشكال الثقافي والتصدي لتشوّهاته ووجوه قصوره من خلال العودة إلى الإيمان القائم على الاقتناع والشورى واحترام العقل كما كان على عهد الرسالة . وذهب إلى أن عقوبة الردة لا تتعلق بالإيمان أو الاقتناع وإنما كانت خطاباً موجهاً ليهود تأمروا لفتنه الناس وإخراجهم عن دينهم ، لكن المتأخرين حولوها من عقوبة "تعزيرية" إلى "حدية" ومن ثم أصبح الإيمان مشوباً بشبهة الجبر والقهر .

**القديم الجديد في المنهج ، الديني والمدني :**

ذهب الكاتب إلى أن هنالك تصادماً - بين ما هو مدني وما هو ديني - قاد إلى صدام هدام صرف المدني عن معرفة مكنون دينه وجعله يقف منه موقف العداء أو اللامبالاة كما صرف الديني عن الاستفادة من إنجاز الحضارة الإنسانية ، وصبغ خطابهما بصبغة الإرهاب المتبادل. وبالتالي لا بد من خلق جيل جديد من العلماء الذين يجمعون بين علمي الوحي ومناهج السنن التجريبية .

**اهتمامات المدنيين وملاحظاتهم المنهجية :**

أكد الكاتب أن سيطرة خطاب الدينين الوعظي غير المنفعل بقوة الحركة والفعل في المجتمع عند الحديث عن الدعاء والتوكل والتسليم بقضاء الله من ناحية ، واعتراضات المدنيين المستعربين وتساؤلاتهم المشوبة بالرفض والتقليل من شأن الدينين بما يشبه الإنكار لقداسة الدين ونصوصه من ناحية أخرى أديا إلى خلاف حاد بين الفريقين رغماً عن الاتفاق في المبادئ والمنطلقات التي تؤمن بالله وسننه وتدعو إلى التدبر والعمل. وذهب الكاتب إلى أن قضايا النظر في النصوص " السنة " خاصة ، أمر لا يقتصر على المعنيين بدراسات توثيقها بل يشمل عموم الأمة وأصحاب الاختصاص العلمي في مختلف شؤون الحياة ، وأنه لا بدّ من استخدام الوسائل والإمكانات العلمية في صياغة علوم النصوص ومناهجها ووسائلها بما يقود إلى تنقية الثقافة الإسلامية ووحدة المعرفة وتكاملها ويحول دون إساءة استخدام قدسية النصوص دون أن يدمر العقلية الإسلامية ويبعيق جهود الإصلاح .

**الإمكانات الحديثة والمنهجية الشمولية في قضايا نقد المتن والسند :**

ذهب الكاتب إلى أن تعدد الروايات واختلافها فيما بينها وتعارضها أحياناً، أمور تثير تساؤلاً عن مدى موضوعية المنهج، ودقة تطبيقه ومدى الحاجة إلى إعادة النظر فيه ، والإفادة من إمكانات العصر العلمية في تطويره ، لمواجهة ما أصاب ثقافة الأمة من عيوب وما تواجهه من تحديات ، وما انتهى إليه كثيرون من سوء وعشوائية استخدام النصوص وجعلها وسيلة لقهر الأمة وإلجام عقلها وإرهاب وجدانها ، وأداة للحرب والصراعات . ومن ثم لا بد من التصحيح المنهجي والتنقية الثقافية بنقد المتن والرواية ودراسة الرجال دراسة مقارنة .

**المشكلة التربوية ، النهج والمنطلق :**

ذهب الكاتب إلى أنّ انحطاط الفكر التربوي قاد إلى تشوّه الرؤية الاجتماعية الكلية وتمكّن السلبيات والمفاسد الاجتماعية ، بسبب تمكّن القهر والاستبداد في الفكر والسياسة والتربية ، ولا شك إنّ واقع انحطاط التربية والتعليم وتفشي الأمية بين أبناء عامة الأمة الإسلامية إنما هو امتداد للممارسات التاريخية وما تمثله من تفشي العقلية التسلطية العرقية الطبقية

الشعوبية في الأمة ، وأن الانحرافات السياسية والفكرية في ممارسات قادة الأمة تعين على فهم تفشي ظاهرة التعليم الخاص والأجنبي للأبناء ومن ثم انحطاط ثقافة عامة الأمة وقدراتها في الوقت الحاضر في بلاد العالم الإسلامي ، ولذلك لابد من مراعاة التكامل بين المعرفي والوجداني التربوي ووضع حلٍ علميٍ منهجيٍ لتيه الخلط والتخبط بين الثابت والمتغيرات وبين ألوان الخطاب البلاغي والتربوي.

#### بين الماضي والحاضر ، الأسس والمنطلقات التربوية:

ذهب الكاتب إلى أن معالم شخصية ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التربية كانت خطاب الود والرحمة ونهج اليسر ومكارم الأخلاق وكريم الخصال وحسن الخلق وقوة التوكل والإحسان والإتقان . كما ذهب إلى أن قلة عناية جمهور الأمة بالقراءة والاطلاع التربوي من جانب، وقلة المتوافر لهم عملياً وتربوياً واجتماعياً من منظور إسلامي من جانب آخر أحدثا خلطاً بين الحب والحرية والنظام ومن ثم لن ندرك وجه القصور في مشروع إصلاح الأمة ولن نتبين عدم قدرته على تحقيق جل الأهداف الكبرى وبناء الأجيال القادرة على حمل أعباء التحديات التي تواجهها الأمة .

#### الحرية قوة ، حدودها وضوابطها :

جوهر الحرية القدرة على أداء الواجبات وحمل المسؤوليات والقدرة على تعبيد النفس للحق والقيام بأعباء الاستخلاف والعمران ، على طريق الحق والعدل والإحسان ، ومقصود ذلك إفساح المجال لكل إنسان لكي يحقق مصالحه ويتصرف وفق اقتناعه بما لا يضر بالآخرين هذا ويؤكد أن ما انتهت إليه الأمة وفكرها من استبعاد واستبداد وجمود قضى على مفهوم ودور الشورى والحرية الذي ترتبط استعادته بالتخلص فكرياً وتربوياً من هذا الفكر الاستبدادي.

#### جوهر النظام والانضباط: التعود وحس الكرامة والمسئولية :

يذهب المؤلف إلى أن نظام الانضباط من الناحية التربوية يعني تعويد النفس وتربيتها على القيام بالواجبات ودفعها في الاتجاه الذي يليق بالكرامة الإنسانية، ولا يعني قهر الطفل وإرهابه وإرغامه على سلوك معين دون اقتناع مباشر منه ، ويرى أن العقاب البدني ليس من أدوات التربية السوية ، وأن الفهم الصحيح لمعاني الحب والحرية والانضباط وفهم طبيعة الطفولة والمراحل التي تمر بها ، وطبيعة مدارك كل مرحلة من مراحلها - من قبل المربي - يؤدي إلى تسهيل مهمة التربية وإدراك غاياتها وأساليبها التطبيقية في تربية الناشئة بما يحقق تربية العقول والنفس ، وإعدادها لتحمل المسؤوليات .

#### الأسرة منبع الوجدان :

ما هي الرؤية الإسلامية في بناء الأسرة وعلاقات أفرادها ؟ وما هي أسرار الشريعة في بناء الأسرة وما هو دور الفرد بين الأسرة والمجتمع ؟ وما هي معالم الطريق في سبيل العصر " الأسرة " ؟ أسئلة أجاب عنها وعن غيرها الكاتب من خلال الفصل الخامس ؛ حيث ذهب إلى أن بناء المؤمن الصادق والمستخلف يتم من خلال الأسرة وسلامة علاقاتها ، إذ أنها المحضن الأول الذي يتربى فيه الطفل وتتكون فيه شخصيته ووجدانه . ومن ثم كان اهتمام الإسلام بالأسرة لكون الإنسان أكرم المخلوقات في حاجة إلى التربية والإعداد في فترة تكوينه " الطفولة " ، ومن ثم كانت الأسرة قاعدة التربية الإنسانية التي تحتضن الطفل ، وتوفر احتياجاته وتسهم بأكبر قدر في تكوينه النفسي والوجداني سلباً وإيجاباً . وقد أقام الإسلام لها نظاماً خاصاً يناسب مهمتها، وأوكل لكل عضوٍ فيها مهمةً ومكانةً تناسب دوره وحاجته التي تبنى على المودة



والمحبة والرحمة والاحترام المتبادل، و كان التكامل بين أدوار أفراد الأسرة أساساً فطرياً حيويّاً ونفسياً لعلاقات أفراد الأسرة.

#### دور الفرد بين الأسرة والمجتمع :

يرى الكاتب أن مكانة أي من أفراد الأسرة داخلها لا علاقة لها بمكانته في المجتمع ، إذ أنّ مكانة الأب مثلاً في الأسرة تتعلق بالأبوة ومكانتها في النفس من الحب والتوقير بينما مكانة أي من الأفراد في المجتمع تتعلق بقدراته وطاقاته ، فلا مجال للتمايز والتعالي والصراع بين أدوار الرجولة والأنوثة ، وكلاهما مكمل بدوره للآخر في بناء الأسرة ووظيفة التربية وتحقيق المجتمع الإسلامي المنشود . ويرى أن إبعاد المرأة عن الإسهامات الثقافية والدينية والاجتماعية الإسلامية أدى إلى ضعف دورها في المجال الإسلامي الاجتماعي .

#### الأمومة والعمل في نظام المجتمع المسلم المعاصر :

يرى الكاتب أن أبلغ مثال على انهزام الأمة الإسلامية هو إخراج المرأة إلى العمل بذات الشروط المطلوبة من الرجل وذات الترتيبات والشاكلة مما قاد إلى تفكك الأسرة وعرض المرأة إلى المتاجرة بعرضها وكافة أنواع الاستقلال . كما يرى أن لكل من الرجل والمرأة خصوصيته وأن دورهما متكامل وليس متماثلاً . ويذهب الكاتب إلى ضرورة أن ينظم سوق العمل بما يحقق تكامل الأدوار وذلك عن طريق دراسة سوق العمل ، والإعداد له وتنظيمه ، مع اعتبار أن دور الأمومة الحيوي وبقاءه بشكل فعال أساس هام للمجتمع فضلاً عن حاجة المرأة إلى الرعاية المادية والمعنوية لأداء دورها في الأسرة ، وهما أمران يجب وضعهما في الاعتبار عند تنظيم سوق العمل بما يحقق احسان التخطيط الاجتماعي أسوة بالاقتصادي . هذا ويؤكد أن العلاج يتم باستعادة دور المرأة والأسرة "سيناء العصر" ، والطفل وتنميته التربوية بصفته عاملاً أساسياً في خطط التغيير والإصلاح ، وذهب إلى أن استعادة البعد الغائب "الطفل" في تحقيق الغاية يتأتى عبر فهم دور الأسرة في تربية الطفل المسلم وتكوين ضميره ، وصياغة وجدانه وتشكيل بنائه النفسي .

#### الأنظمة والمؤسسات:

يرى أبو سليمان في كتابة هذا أن القطاع الإسلامي الإصلاحي في الأمة ، لا يمكنه أن يعتمد على الأنظمة وصفواتها السياسية ولا على الأجهزة والدوائر الإعلامية لإصلاح التربية والتعليم وفقاً للمنظور الإسلامي ؛ لأن تحقق مصالح هذه الأنظمة وأجهزتها رهين ببقاء وضع الأمة الحالي، وبالتالي فهي تابع وليس أصلاً في عملية الإصلاح ، لكن يمكن للمفكرين والمصلحين الإسلاميين الاستفادة من وسائل الإعلام والاتصال الالكترونية التي لا تخضع للرقابة وتتخطى كافة أنواع الحدود والحواجز ، إلا أن ذلك لا يعني تجاهل محاولة تجنيد الأنظمة والمؤسسات الإعلامية ، ويرى أن الحل لا بد من أن يستند إلى دافع ذاتي فعال ، يكون مفتاح التشغيل وهو دافع الأبوة الفطري ، كما يرى أن فاعلية دور المدرسة والإعلام والمجتمع في تربية الطفل والناشئة يستند إلى موقف الوالدين ، إذ يمنحان هذه المؤسسات إمكانية الوصول إلى الطفل .

#### قصور التربية والتعليم في الأمة :

ذهب الكاتب إلى أن المجتمع الإسلامي لا زال لا يقدّر دور الطفل والتربية في ترقية المجتمع وتحقيق مشاريعه الإصلاحية والعمرانية ، ويظهر ذلك من خلال مقارنة ما ينفق على دور الأسرة التربوي لترشيده وتربيته وتطويره بما ينفق على التعليم ووسائل الإعلام ؛ لذلك نجد أن دور التربية الأسري لم يخرج من حلقة الأثرة والأنانية والحرص على لقمة العيش



والاستهلاك وتكديس الأموال ، متناسياً المجتمع والنظام العام والمصلحة العامة والتضامن الاجتماعي والإخاء الإسلامي والإنساني . أما المناهج والوسائل التربوية في العالم الإسلامي فلا تحفل بأهمية الجانب النفسي والوجداني التكويني للطفل ، وكذا ثقافة الوالدين التربوية التي تنفتقر إلى أبسط الأبعاد التربوية ، إذ هي ثقافة سلطوية وعقاب نفسي أكثر منها ثقافة معرفية تكوّن الوجدان المسلم المبادر .

#### أهمية أدبيات الأبوة التربوية :

يرى الكاتب أن للأسرة أهمية قصوى في التشكيل النفسي والعقلي والوجداني للطفل ، وقد أطلق عليها "سيناء العصر" ، ومن ثم فإن المعالجات والثقافة التي يجب إنتاجها من أجل ترقية شؤون الأسرة والتربية والتعليم وتطويرها ، يجب أن تكون معالجة علمية سننية إسلامية اجتماعية حضارية تتعامل مع جوهر المفاهيم وكنه العلاقات والعوامل المؤثرة فيها وكيفية التعامل معها وتحقيق أهدافها المنشودة . ويضاف إلى الاهتمام بالأسرة الاهتمام بالمعلم لأنه الرديف والمعاون الميداني للأسرة وكلما توافق دور الأسرة والمعلم ومناهجهما كلما كان النجاح أيسر في تحقيق التنشئة الإيجابية الفعالة .

#### العلاقة بين المعرفي والوجداني :

لما كان للتكوين الوجداني النفسي التربوي أوانه ومداه في مراحل العمر والنمو الإنساني الذي لا يتعداه وجب أن يكون أساساً يبنى عليه نوع المعرفة وأسلوب تعليمها حتى في مجالات العقيدة والقيم والأخلاق ومن ثم وجب أن يراعي في كل ما يقدم للطفل من علوم ومعارف -حتى تعليم القرآن - آثاره على تكوين عقلية وبناء الطفل النفسي والوجداني . هذا ويذهب الكاتب إلى ضرورة إصلاح خطأ منهج التعليم التقليدي الذي يبدأ تعليم الطفل القرآن من الجزء الثلاثين لما فيه من خطاب غلظة ووعيد للكفار بما يؤثر سلباً على تكوينه النفس والوجداني ، وعلى المربي أن يقدم للطفل اختيارات من القرآن الكريم بما يناسب طبيعته التي يمر بها ، بما يقربه من الله وينمي في نفسه مشاعر الحب الإيجابية ويحبب إليه قيم الإسلام وغاياته .

#### خطة العمل :

ما هي غاية خطة العمل ؟ وما هي أولى خطواتها ؟ وكيف تتم تنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد ؟ وكيف يحدث الإصلاح الثقافي ؟ وما هي أدبيات الأسرة والمدرسة التربوية ؟ في آخر فصول الكتاب يرى الكاتب أن تعدد الأبعاد والتناسق وتكامل الجبهات سمات أساسية يجب أن تتوافر في خطة العمل التي تهدف إلى التغيير النفسي والوجداني في الطفولة ، بما يحقق إعادة العقلية المسلمة لتكون عقلية سلمية مؤمنة وقوية علمية جادة . وسيتم ذلك عبر استعادة الرؤية الإسلامية الكونية ، باستعادة الخطاب التربوي النبوي الهادف لغرس بذرة الإصلاح المعرفي والوجداني في تربة الطفولة على أساس مكين ، ويعيد إلى الأمة "بعدها الغائب" في مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري . وأول الخطوات في هذا الطريق هي توعية المثقفين والمفكرين بأهمية الطفل . وتنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد لاسترداد الرؤية الكلية الشمولية الإسلامية وتطوير المناهج التربوية وتلافي قصور الجهود السابقة للإصلاح المتمثل في تناسي دور الطفل وأهمية تغييره التربوي . تحويل العمل الإصلاحي التربوي إلى عمل فكري منهجي هادف إلى بناء التكامل المعرفي بين معارف الهداية الإلهية الكلية ، وعلوم العقل السننية ، وتطوير العلوم الاجتماعية والإنسانية الإسلامية وتقديم البدائل الرشيدة لبناء إنسان أكمل وحضارة أفضل . إضافة إلى القضاء على فكر الخرافة والعنصرية عبر استمرار جهود إسلامية المعرفة المبنية على مقاصد ومفاهيم وقيم تأصيل المنظومة الإسلامية . ولا بد من أن يتكامل مع الإصلاح الثقافي الإصلاح

التربوي بما يوفر الجانب الوجداني والنفسي اللازم لتحويل المعرفة والعلم إلى بذل وتضحية وجدل ومثابرة ، وذلك عبر توظيف المنهج العلمي لدراسات الطفولة ، فضلاً عن تقديم الأدبيات العلمية التي توفر المفاهيم الإسلامية العلمية والاجتماعية التربوية التي تعين الآباء على بناء أسرة سليمة لبناء نفسية ووجدان الطفل واتجاهاته .

### خطة إسلامية المعرفة وإصلاح الفكر الإسلامي :

ظهرت مدرسة إسلامية المعرفة في كتابات وجهود شباب جمعوا بين الثقافتين الإسلامية والوطنية ، وأدركوا أهمية الفكر في أزمة التخلف العلمي الحضاري للأمة الإسلامية كما أدركوا أهمية المنهج الإسلامي وإمكاناته في إحياء الفكر الإسلامي المعاصر ، و تحولت الأفكار إلى برنامج عمل ، فنشأت جمعيات ومؤسسات الطلبة المسلمين المبتعثين إلى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية التي هدفت إلى حمايتهم في ظل الغربة من التغريب ، فضلاً عن العمل على إعادة تأهيل وتطوير مناهج الفكر والتربية وتنقية الثقافة الإسلامية ووسائل التعليم ؛ بما ينمي الطاقة الوجدانية النفسية والقدرة المعرفية والتكنولوجية اللازمة لحمل أعباء المشروع الإسلامي كمؤسسات علمية ثقافية إسلامية متخصصة مستقلة ، تعمل على خدمة الفكر الإسلامي وإعادة بناء المنهج المعرفي ، وتنقية الثقافة الإسلامية بما يقود إلى الإصلاح المطلوب ويحقق منهجية الأمة الإسلامية . هذا وقد تعددت الجهود بين الكتاب والندوة ، والمحاضرة والمؤتمرات العلمية والدوريات الهادفة لأن تصبح المعرفة معرفة شمولية متجددة تعني بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والعلمية وتسير غور الطابع وتهدى المسيرة الإنسانية الحضارية، على ضوء ثوابت الوحي الرباني الإسلامي وغاياته السامية على أساس الإصلاح المنهجي وتكامل مصادر المعرفة الإسلامية .

هذا إضافة إلى إنشاء المؤسسات العاملة في هذا المجال كمؤسسة تنمية الطفولة المتخصصة في شئون تربية الطفل وتنميته بدءاً من مرحلة الحمل وانتهاءً بسن النضج ودخول سوق العمل أو مؤسسات التعليم العالي. ويذهب الكاتب إلى أنه لا بد من اتحاد عام لمؤسسات الفكر الحضاري الإسلامي إضافة إلى التعاون مع المراكز الفكرية التي تعمل لذات الهدف ولا بد من مؤتمر منظم يجمع صفوة الأمة لإخراج إعلان المبادئ المنهجية والفكرية الذي يتناول المجالات الأساسية في حياتها ويرسي الأسس والمقاصد والكليات والمبادئ والأولويات والتحديات ويصبح دليل عمل في منهجية الإصلاح المنشود .

### خاتمة :

حاول هذا الكتاب استبطان وتصور أزمة الأمة والعوامل الأساسية المؤثرة فيها وإبراز العناصر المفقودة في مشاريع الإصلاح الإسلامي المنشود والتي يجب أن تؤخذ في الحسبان لاستنهاض الأمة وتصحيح مسيرتها وتحريك كوامن طاقتها . وقد خلص الكاتب إلى أن الفصام بين الصفتين الفكرية والسياسية قد أدى إلى أن تصبح الأمة الإسلامية أمة سلبية لها نفسية العبيد ومتخلفة في مجال المعرفة الحضارية مغيبة الوجدان الجمعي ، ومن ثم لاستعادة وحدة المعرفة الكلية الدينية القيمية والمعرفة الإنسانية السننية لا بد من الإصلاح المنهجي والثقافي والتربوي ، والاهتمام بالطفل ليصبح مؤمناً واضح الرؤية ، حراً ، قوياً وقادراً ، من خلال تحريك مفتاح تشغيل حركة التغيير الجذري السلمية التربوية بواسطة الآباء والأسرة ودوافعهم الفطرية لما فيه مصلحة أبنائهم ولما لهم من قدرة مؤثرة في تكوين نفسية وعقلية أبنائهم ، ولذلك كان لا بد من توافر الأدبيات والمقررات والوسائل العلمية التربوية الإسلامية الفعالة لتسهيل مهمة المعلمين وبقية فئات المجتمع ، وكما لا بد من بناء المراكز والمؤسسات العلمية والفكرية الحريصة والقادرة على ترقية فكر الأمة وتجديده .